الفصل الثامن

قـــدح يوسف

عندما جاء اخوة يوسف الى مصر ليحصلوا على القمح فى أثناء فترة المجاعة ، وكانوا على وشك أن يعودوا الى فلسطين ، أمر يوسف أتباعه أن يخفوا قدحه الفضى الذى يشرب منه فى جوال أخيـــه بنيامين • وما كاد الاخوة يخرجون من المدينة ، وأصبحوا على بعد خطوات منها ، حتى أرسل يوسف خادمه فى أثرهم متهما اياهم بسرقة القدح • ومن ثم أخذ يبحث فى أجولتهم حتى عثر على القدح المفقود فى جـــوال بنيامين • وعند ذاك أخذ الخادم يعنف الاخوة على نكرانهم لجميـــل سيده الذى عاملهم فى كرم ، فاذا بهم يقابلون هذه المعاملة الطيبـــة بسرقة قدحه الثمين • ثم قال لهم الخادم « لماذا جازيتم شرا عوضا عن خير • أليس هذا هو الذى يشرب سيدى فيه وهو يتفاءل بـــه • أسأتم ما صنعتم (١) » وعندما رجع الاخوه الى يوسف أعاد عليهـــم هذه العبارات التأنيبية وقال لهم : « ما هذا الفعل الذى فعلتم : ألم تعلموا أن رجلا مثلى يتفاءل (٢) » • ويمكننا أن نخلص من هـــذه العبارة أن يوسف كان يتباهى بصفة خاصة بمقدرته على اكتشـــاف اللص عن طريق قدح التكهن •

وليست عادة استخدام القدح وسيلة للتكهن بالعادة غير المـــألوفة

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الرابع والأربعون آية ٤ ، ٥ .
(٢) نفســـه .

فى الزمن القديم والحديث معا ، وان اختلفت طريقة استخدامه لهذا الغرض • فنحن نقرأ أن الفيلسف « ازيدوروس » الذى كان من أتباع مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، تقابل مع امرأة متدينة كانت تمتلك مقدرة غريبة على التكهن • وقد تعودت هذه المرأة أن تصب ماء رائقا فى قدح زجاجى ، وتتنبأ من خلال ما يتراءى لها فى المياه بالحوادث التى ستحدث فى المستقبل وقد كان التكهن عن طريق النظر فى الماء يعد نوعا من أنواع التكهن ، وقد أطلق عليه الاغريق اسم « هيدرومانتيا » • وفى بعض الأحيان كان يوضع فى الماء حجر كريم من نوع معين لكى يستحضر عن طريقها صور الآلهة • وقد قيل ان الملك « نوما » كان يتكهن عن طريق صور الآلهة التى كانت تبدو له فى الماء ، وأنه كان يستخدم قدحا لهذا الغرض • ومن المحتمل أكثر من ذلك أنه كان يرى صور الآلهة على صفحة مياه النبع المقدس « ايجيريا » ، وذلك عن طريق الروح الذى كان مقترنا به • وعندما كان « الترالليون » الذين كانوا يسكنون « كاريا » يرغبون فى التحقق من نتيجة الحرب « الميثريداتية » ، كانوا يستخدمون صبيا يعلن ، عندما يحملق فى الماء ، أنه يرى صورة الاله « مير كورى » ، ثم يتغنى من خلال الكشف الالهى بالحوادث المستقبلة ، بمائة وستين بيتا من الشعر • وقد قيل ان الفرس كانوا يشتهرون بمقدرتهم على التكهن من خلال النظر فى الماء ، وقد انتقلت هذه الطريقة فى التكهن الى الغرب عن طريقهم بحق •

على أننا ليس لدينا علم بالطريقة التى اتبعها يوسف فى الكشف عن السارق أو أية أمور أخرى عن طريق قدحه السحرى ، ولكننا نعتقد أنه كان يستمد استدلالاته عن طريق الصور التى كانت تتراءى له فى الماء • ومن المؤكد أن هذه الطريقة فى التكهن لا تزال تتبع فى مصر ، وربما كانت منتشرة فى هذا البلد المحافظ على التقاليد منذ العصور القديمة • والاسم الحديث لهذه الطريقة فى التكهن هو « المرآة السحرية » • « وهى تستخدم على نطاق واسع على النحو التالى :

يطلب من غلام ساذج (لا يزيد عمره على اثنى عشر عاما) أن ينظر فى قدح مملوءا بالماء ومنقوش عليه بعض العبارات ، بينما تلصق فى غطاء رأسه من الداخل ورقة منقوش عليها كتابات كذلك وتتدلى فوق جبينه • ثم يعطر هذا الغلام بالبخور بينما يتمتم المشعوذ ببعض العبارات • فاذا سئل الغلام بعد وقت عما يراه فى القدح ، فانه يقول انه يرى شخوصا تتحرك فى الماء كما لو كانت تتحرك فى مرآة • عند ذاك يطلب منه المشعوذ أن يصدر أوامر للروح بأن تنصب خيمة على سبيل المثال ، أو أن تحضر القهوة والغليون ، فتلبى هذه المطالب فى الحال • ثم يطلب المشعوذ من المتفرجين الفضوليين أن يذكروا اسم شخص يرغبون فى أن تظهر صورته على صفة الماء فيذكروا له اسم شخص حى أو ميت • وعند ذلك يأمر الغلام الروح أن تحضر له هذا الشخص • وفى لحظات تظهر صورة هذا الشخص على صفحة الماء ويأخذ الغلام فى وصفه • ولكن الأوصاف التى يسردها كما رأينا ذلك بأنفسنا ، تبتعد دائما عن الحقيقة • فاذا ووجه الغلام بذلك اعتذر بأن الصور التى ظهرت أمامه لم تتوسط القدح ، وظل نصفها دائما مختفيا • على أنه كان يرى فى أحيان أخرى صور الشخوص كما هى ، بل كان يراها متحركة • واذا حدثت سرقة ، سئلت المرآة السحرية فى بعض الأحيان عن السارق كما شاهدنا ذلك بأنفسنا فى احدى المناسبات • (ويطلق على هذه العملية اسم ضرب « المندل » • وفى هذه المناسبة اتهم الصبى شخصا ثبتت براءته كلية بعد ذلك ، ولكن الصبى اتهمه عمدا بالسرقة ، كما اتضح لنا ، رغبة فى ايذائه • ولهذا السبب فقد كافحت الحكومة هذه الشعوذة التى كانت منتشرة على نطاق واسع فيما مضى • ومع ذلك فان الناس ما زالوا يمارسونها حتى اليوم •

وقد تكون المرآة السحرية التى تستخدم فى التكهن فى مصر حبرا يصب فى راحة يد المشعوذ بدلا من كونها قدحا ممتلئا بالماء ، ولكن الاجراءات التى تتبع فى كلتا الحالتين واحدة • فالمشعوذ يدعى أنه يرى

صور الشخوص التى يطلب المتفرج استحضارها ، أحياء كانوا أم أموات • كما تستخدم مرآة الجد السحرية فى الكشف عن السارق وعن أمور أخرى ، كما هو الحال مع القدح المملىء بالماء • والأشخاص الذين يستعان بهم فى هذا الغرض هم الصبية دون البلوغ ، والفتاة العذراء ، وعبدة سوداء ، والمرأة الحامل • ولكن يبدو أن الصبى دون البلوغ كان أكثرهم استخداما فى هذا الغرض • فيرسم فى راحة يد الصبى مربع سحرى بالحبر ، وفى وسط هذا المربع يصب الحبر الذى يكون المرآة السحرية •و بينما يحملق المتكهن فى هذه المرآة ، يحرق البخور وتحرق معه ورقة مكتوب عليها بعض التعاويذ • وعندما كان « كينج ليك » فى مصر أرسل فى طلب ساحر ليقدم له نموذجا من هذا السحر الذى يمارسه • وكان هذا السحار رجلا ذا هيبة وله لحية طويلة ، ويرتدى عمامة كبيرة تلفت المنظر وملابس فضفاضة • ثم جاء هذا الساحر بصبى وجعله يحملق فى الحبر الذى وضعه فى راحة يده ليصف شكل الرجل الانجليزى الذى يذكر اسمه « كينج ليك » • وعند ذاك طلب « كينج ليك » استحضار صورة ناظر مدرسته فى « اتون » واسمه « كت » • وكان هذا الناظر شرسا مستبدا قصير الجسم ذا مزاج حاد ، وله حاجبان أشعثان يضرب لونهما الى الحمرة ، الى غير ذلك من الملامح التى تتفق مع هذه الصفات • وعند ذاك قال الصبى انه يرى فى مرآة الحبر صورة فتاة شقراء ذات شعر ذهبى وعينين زرقاوين ووجه شاحب وشفاة حمراء • فلما انفجر « كينج ليك» فى الضحك إثر هذا التصريح ، أعان الساحر الذى انتابته الربكة ، بأن هذا الصبى لا بد أن يكون قد ارتكب اثما ، ومن فقد ركله برجله وطرده •

وقد كانت هناك أشكال أخرى من التكهنات تتبع فى جهات أخرى من انحاء العالم • فقد كان الناس قد تعودوا فى الدول الاسكندنافية أن يذهبوا الى منجم مساء كل خميس لكى يروا فى الدلو المتلىء بالماء صورة السارق الذى سرقهم • وليست عند التاهيتيين « سوى وسيلة

واحدة لاكتشاف سارق أى نوع من السرقة ، وذلك بأن يلجأوا الى شخص تتملكه روح التكهن ويؤكد لهم على الدوام أنه قادر على وجه السارق ينعكس على صفحة ماء موضوع فى قرعة مفرغة » • ويدعى بعض المتكهنين فى نيو غينيا الجنوبية الشرقة أنهم يكشفون عن وجه الآثم فى صفحة المياه فى بركة يذاب فيها بعض زيت جوز الهند • واذا خرج رجل عند الاسكيمو فى رحلة بحرية ولم يرجع فى الوقت المحدد لرجوعه ، فانهم يلجأون الى ساحر يتعهد بأن يؤكد لهم ما اذا كان هذا الشخص ما زال على قيد الحياة أم أنه قد توفى • ومن ثم فانه يستدعى أقرب قريب لهذا الشخص المتغيب ، فيقوم برفع رأس الساحر بعصاه ويدعه ينظر فى برميل به ماء ، ثم يعلن الساحر أنه يرى على صفحة الماء صورة البحار المتغيب وقد انقلب به القارب ، أو يراه جالسا فيه ويجدف بمجدافه • وبذلك يهدىء من نفس اقاربه القلقين عليه بأن يؤكد لهم سلامته ، أو أنه يحمل لهم نبأ وفاته فيدعهم لأحزانهم •

على أن الوعاء الممتلىء بالماء لا يمثل الوسيلة المادية الوحيدة للمرآة السحرية ، التى تستكشف الحقيقة عن طريقها • فالطريقة التى تتبع فى الهند لاكتشاف السارق هى أن تكتب كل اسم من أسماء الذين تقع عليهم التهمة على كرة منفصلة من العجين أو الشمع ، ثم ترمى هذه الكرات فى وعاء به ماء • فالكرة التى تحمل اسم السارق تطفو ، وفقا لاعتقادهم ، فوق سطح الماء ، فى حين تستقر سائر الكرات فى القاع • وقد تعود الشباب فى أوروبا أن يلجأوا الى أساليب عدة من التكهن فى « أمسية منتصف الصيف » ، لكى يتأكدوا من مصيرهم فى الحب • فالفتاة فى « دورستشاير » تكتب الحروف الأبجدية على قصاصات من الورق قبل أن تذهب للنوم فى تلك الأمسية ، وتضعها فى وعاء به ماء ، بحيث تكون الأحرف مقلوبة • وهى تتوقع فى الصباح أن تجد الحرف الأول من زوج مستقبلها قد انقلب الى اعلى ، فى حين تظل سائر الحروف فى وضعها المقلوب •

وفى بعض الأحيان تقرر المصائر عن طريق اسقاط مادة ما فى وعاء به ماء ويحكم الشخص على مصيره من خلال الوضع أو الشكل الذى تتخذه المادة فى الماء • فالطبيب فى قبيلة « باهيما » أو « بانيانكولى» وهى قبيلة رعوية تسكن افريقيا الوسطى فى محمية أوغندا ؛ يأتى فى بعض الأحيان بوعاء به ماء ويرمى فيه بأعشاب معينة تحدث زبدا عندما توضع فى الماء • ثم يرمى كذلك أربع حبات من البن فى الماء ويراقب الوضع الذى تسير فيه • ومن خلال هذا الوضع أو من خلال طريقة انقلابها فى الماء فى أثناء طفوها ؛ تتحدد أرادة الآلهة ، وفى بعض الأحيان يتكهن الكاهن فى قبيلة « جارو » التى تسكن فى أسام ، عن طريق قدح ممتلىء بالماء وبضعة حبات من الأرز الجاف ، فهو يمسك بالقدح فى يده اليسرى ويسقط فيه حبات الأرز حبة حبة ويذكر اسم روح من الأرواح عند اسقاط كل حبة • فاذا حدث عند ذكر اسم روح من هذه الأرواح أن اصطدمت حبتان وهما تطفوان على سطح الماء ، فان هذه الروح هى التى ينبغى عليه أن يتضرع اليها • وفى مرتفعات سكتلاندا يتكهن الناس عن طريق أوراق الشاى أو عن طريق رواسب الشاى التى تتبقى فى فنجان • بل ان النساء غير المتزوجات فى اسكتلندا يذهبن حتى اليوم زرافات الى أمثال هؤلاء المنجمين ، ليخبروهن ، مقابل اعطائهم قدرا من الشاى ، بالأزواج الذين يناسبنهن • وطريقة التكهن فى هذه الحالة تكون عن طريق مراقبة نظم أوراق الشاى المتخلفة فى الفنجان ، وذلك بعد أن تغطى الثمالة المتخلفة جوانب الفنجان جهة اليد اليمنى وتصب من الفنجان • كما يستعان فى انجلترا ببقايا الشاى أو القهوة المتخلفة فى فنجان للتعرف على النبوءات • وبالمثل يتكهن الناس فى مقدونيا من خلال القهوة المتخلفة فى الفنجان • » وقد تشير فقاعة واحدة تظهر فى وسط فنجان القهوة الى أن صاحب الفنجان له صديق واحد وفى مخلص • فاذا ــ تجمعت عدة فقاعات عند حلقة الفنجان ، فان هذا يشير الى أن الشخص متقلب فى مزاجه العاطفى ، مشتت فى عبادته الدينية • كما

يختلف فى تفسير رواسب القهوة حسب الشكل الذى تتخذه ، فاذا انتشرت حول جوانب الفنجان من الداخل فى شكل نهيرات وجداول ، فان هذا يعنى رخاء فى المال ؛ وهكذا .

وهناك وسيلة مستحبة للتنبؤ تتبع فى أوروبا ، وذلك عن طريق صب رصاص أو شمع منصهر فى وعاء به ماء ، ثم تراقب الأشكال التى يتخذها الرصاص أو الشمع وهما يأخذان فى التجمد . وتتبع هذه الطريقة فى التنبؤ بالمستقبل فى كل من ليتوانيا والسويد واسكلندا وأيرلندا . كما أن الأيرلنديين يعتقدون أن الجنيات تتسبن فى احداث مرض يسمى « أسانى » . ولكى يتنبأ المنجمون بما اذا كان هذا المرض سينتشر أم لا ؛ أو يتنبأون بطريقة للشفاء منه فى حالة انتشاره ، فانهم يستعينون فى ذلك بقطع من الفحم يضعونها فى وعاء به ماء رائق .

ويحق لنا أن نفترض بعد عرضنا لهذه الأمثلة أن يوسف كان يستعين بطريقة أو أخرى من هذه الطرق للتكهن عن طريق قدحه الفضى .